

حين يتعب الحديد من المطرقة... ويبدأ الوعي في الطرق

إبراهيم برسي

توطئة:

هذا النص هو امتداد لما طرحته في مقالي السابق “من البروليتاريا إلى الكومنتاريا”. غير أنه لا يسعى إلى التكرار بقدر ما يحاول تعميق الفكرة، عبر استدعاء أفق فلسفي أوسع يُجاور ما كتبه فوكو وبرودون وبورديو، بوصفهم ثلاثي الوعي الذي اشتبك مع مفهوم السلطة من زوايا مختلفة: السلطة كجسد للمعرفة، والملكية كقيد على الحرية، والهيمنة كعنف رمزي يتخفى في اللغة والتعليم. في هذا الامتداد، تتحول الكومنتاريا إلى مختبر جديد للمعنى، وتُصبح الثورة فعلاً معرفياً وليس صداماً طبقيّاً فقط، إذ لم يُعد الصراع يدور حول من يُنتج الخبز، بل حول من يُسمي الجوع... من يُعيد تعريف الشيع والمعنى في آنٍ واحد.

لم يكن مفهوم الطبقة يوماً شأنًا اقتصاديًا محضًا، بل طريقة في النظر إلى الإنسان من حيث وعيه بموقعه في العالم. حين تحدثت ماركس عن البروليتاريا، لم يكن يعني فقط أولئك الذين يبيعون جهدهم في سوق العمل، بل أولئك الذين جُردوا من أي سلطة على أدوات إنتاج المعنى. كانت البروليتاريا في جوهرها احتجاجًا على النظام الذي يُحوّل الإنسان إلى وظيفة في ماكينة الرأسمال. غير أنّ ما تغيّر منذ منتصف القرن العشرين، هو أن الماكينة لم تُعد فقط مادية، بل أصبحت رمزية، وأن أدوات الإنتاج لم تُعد المطرقة والمصنع، بل الخوارزمية والمنصة، والمعرفة القابلة للتداول كسلعة. من هنا ولدت طبقة جديدة — ليست اقتصادية بالمعنى الكلاسيكي، بل معرفية — هي ما أسميه “الكومنتاريا”: أولئك الذين يُنتجون التأثير، ويُعيدون صياغة المعنى عبر الكلمة، الصورة، التعليم، والتحليل، في زمنٍ تحول فيه الإدراك إلى حقل صراع طبقي جديد... صراع لم يُعد بين العامل وربّ العمل، بل بين المُنتج للمعنى والمُستهلك له.

لقد كانت البروليتاريا تصنع الحديد والخبز، أما الكومنتاريا فتصنع اللغة التي يُؤكل بها الخبز، وتُكتب بها الشعارات على الحديد. والسلطة التي كانت تُراقب العامل في المصنع صارت تُراقب المستخدم عبر الشاشة. هكذا انتقلت المعركة من السيطرة على الجسد إلى السيطرة على الوعي، ومن مراقبة الحركة إلى مراقبة الفكرة. في هذا السياق يمكن استدعاء بورديو، الذي رأى أنّ الهيمنة لا تُمارَس فقط بالعنف المادي، بل بالعنف الرمزي الذي يجعل المقهور يقتنع بعدالة القهر. السلطة لا تقول لك “أخضع”، بل تُقنعك بأنّ ما تفعله هو إرادتك، كما لو أنّ الطاعة وُلدت من الحرية نفسها. وهنا تتحوّل التوتاليتارية من نظامٍ سياسي إلى نمط إدراكٍ للعالم، إلى بنية ثقافية تتسلل إلى اللغة، إلى المدرسة، إلى التلفاز، فتجعل الطاعة تبدو شكلًا من أشكال الانتماء... كأنها قدر جميل لا يُناقش.

التوتاليتارية الحديثة، سواء تجلّت في ثوبٍ عسكري أو ديني أو تقني، لا تسعى إلى تكميم الأفواه بقدر ما تُحاول احتلال اللغة نفسها. فهي تعرف أن “من يملك السيطرة على الحقول الرمزية يملك القدرة على تحديد ما يُعد واقعًا”، كما قال بورديو.

لذلك لم تعد السلطة تقتل خصومها، بل تُعيد تعريفهم، وتمنحهم لغةً ناعمةً للسكوت. وحين يُصادر المعجم، يصبح التفكير خيانةً لغوية. من هنا، فإن التوتاليتارية تخشى الكومنتاريا أكثر مما خافت يومًا من البروليتاريا، لأنها لا تستطيع تأميم الفكرة كما أمّمت المصنع.

العامل يمكن تسريحه، أما الوعي فلا يُفصل بقرار. ولهذا رأينا الأنظمة الشمولية تطارد الكلمة قبل الرصاص، وتخاف من القسيمة أكثر مما تخاف من المظاهرة. إنها تدرك أن “المعنى”، لا الرصاص، هو ما يُهدد وجودها.

في المقابل، أظهر فوكو أنَّ السلطة ليست هرمًا يُسيطر من الأعلى، بل شبكة من العلاقات تنتج الطاعة عبر المراقبة والانضباط. لم يَعد القمع فعلاً خارجياً بل ممارسة داخلية، يسكنها الخوف والرغبة في آنٍ واحد.

حين يراقب الإنسان نفسه، تتحقق التوتاليتارية بأكثر أشكالها نجاحًا. فليست السجون هي التي تصنع الطاعة، بل المدرسة، والمنبر، وشاشة الهاتف. إنها شبكة من الانضباطات الدقيقة التي تُربّي الجسد على الامتثال، والعقل على التصديق، والخيال على التبرير.

وهكذا، حين يتعب الحديد من المطرقة، يبدأ الوعي في الطرق... لا يُعيد تشكيل المعدن، بل يُعيد تشكيل الإنسان.

أما برودون، الذي قال إنَّ “الملكية سرقة”، فقد فهم باكراً أن المسألة ليست في المال أو الأرض، بل في فكرة الامتلاك نفسها: امتلاك الشيء هو أول خطوة لامتلاك الإنسان. ولذلك دعا إلى مجتمع لا تُدار فيه السلطة من مركز، بل تُبنى على التعاون الأفقي بين الأفراد. إنه ضدَّ التوتاليتارية قبل أن تولد، وضدَّ كل سلطة تحتكر القرار والمعنى. فبرودون لا يرفض الملكية بوصفها اقتصاداً فقط، بل بوصفها علاقة هيمنة، كما لو أنَّ الأرض حين تُقسَّم، يُقسَّم معها الوعي.

في قلب هذه الجدلية يقف الإنسان، كما تصوّره فوكو وبوردو معاً: إنسان لم يَعد حراً من الخارج، بل من الداخل أيضاً. الرأسمالية الجديدة لم تُعد تفرض العمل بالقوة، بل تُحوّله إلى شغف. لم تُعد تُرغم على الطاعة، بل تُغريك بها. الكومنتاريا هنا تواجه أصعب مهمة: أن تُعيد المعنى إلى اللغة التي أفرغتها السوق من محتواها، وأن تُعيد الوعي إلى الفرد الذي أُقنع بأن الاختيار مجرد شعارٍ على شاشة كمبيوتر، أو جوال.

إنها مواجهة لا سلاح فيها إلا الوعي، ولا ميدان لها إلا اللغة. إنها الثورة التي تُقام داخل الكلمة لا في الشارع، داخل الصورة لا أمامها.

التوتاليتارية في صورتها الحديثة ليست ستالينية فقط، بل قد تكون ليبرالية متخفية، تُخضعك عبر فائض الحرية لا عبر نقصها. فهي تمنحك مساحةً لتتكلم، لكنها تتحكّم في الخوارزمية التي تُسمعك. تمنحك الكاميرا للتعبّر، لكنها تملك المنصة التي تُقرّر من يُشاهد. هنا يصبح “الكولاك” مجازاً جديداً لضحايا هذا النظام الرقمي، أولئك الذين لا يملكون إلا حضورهم الهشّ على الشاشة، في مواجهة قلةٍ من الأغنياء الرمزيين الذين يحتكرون الضوء. ما فعله ستالين يوماً بالأرض، تفعله اليوم الشركات بالخوارزمية: تأميم جديد، لا للمزارع بل للمعنى نفسه.

وهنا يلتقي فكر برودون مع بوردو في نقطة حاسمة: أنَّ العدالة لا تتحقق بتوزيع الثروة فقط، بل بتوزيع السلطة على المعنى. العدالة الحقيقية ليست في امتلاك الخبز، بل في امتلاك القدرة على تسمية الجوع. من لا يستطيع أن يُسمي ظلمه لن يقدر على مقاومته. لذلك فإن الكومنتاريا، في بعدها الأعمق، ليست طبقة جديدة بقدر ما هي وعي جديد بالهيمنة، مقاومة رمزية ضدَّ استلابٍ مزدوج: مادي ومعرفي. إنها محاولة لإعادة الإنسان إلى موقع الفاعل بعد أن حُوّل إلى متفرّج دائم على حياته.

في زمن الكومنتاريا، لم تُعد الحرب على العمال فقط، بل على المفاهيم ذاتها: ما هو الوطن؟

من هو المواطن؟

ما هو الجمال؟

حتى اللغة أصبحت ميداناً للسيطرة، وكل إعادة تعريفٍ لكلمةٍ تُعدّ معركة صغيرة في حرب طويلة ضدّ التوتاليتارية الرمزية. اللغة نفسها تحوّلت إلى ميدانٍ للهيمنة: تُصاغ الكلمات كقوانين، وتُدار القواميس كمؤسساتٍ للسلطة. وكما قال فوكو، “كل سلطة تنتج خطاباً، وكل خطابٍ يحمل إمكانية المقاومة”، لكن تلك الإمكانية لا تُدرك إلا حين يستيقظ الوعي من سباته ويبدأ في الطّرق... تماماً كما يفعل الحديد حين يتعب من المطرقة ويقرّر أن يطرق ذاته.

لهذا فإنّ الوعي هو السلاح الأخير حين تُصدّر البنادق، والمعرفة هي الشكل الأعلى للفعل السياسي حين تُغلق الميادين. الوعي ليس ترفاً فكرياً، بل بوصلة نجاةٍ في عالمٍ تُعاد صياغته كل يوم بواسطة من يمتلكون أدوات الخطاب. إن البروليتاريا كانت تطالب بالخبز، أما الكومنتاريا فتطالب بالمعنى. الأولى أرادت الثورة على الجوع، والثانية تُريد الثورة على التجهيل. وبينهما تمتدّ كل مأساة الحداثة: من المصنع إلى الشاشة، من الدولة إلى الخوارزمية، من الرقيب إلى المتابع... من المطرقة إلى اللايك.

وإذا كان برودون قد حلم بمجتمع بلا سلطة، وفوكو فكّك السلطة إلى شبكة، وبورديو فضحها في المدارس واللغة، فإنّ ما يتبقّى اليوم هو استعادة الإنسان من تحت هذا الركام الرمزي — أن نُعيد للفعل صدقه، وللكلمة خطورتها، وللمعرفة طابعها المتمرّد. ليست المعرفة خلاصاً، لكنها بداية الطريق نحو الخلاص من القهر الناعم الذي يُمارَس باسم الحرية.

في النهاية، التوتاليتارية ليست نظاماً خارجياً فحسب، بل استعداداً داخلياً للامتثال، والبروليتاريا ليست طبقة من الفقراء فقط، بل من المقموعين لغوياً ومعرفياً. أما الكومنتاريا فهي محاولة دؤوبة لإعادة توزيع الضوء في العالم، لا الثروة فقط. إنّها طبقة لا تتشكل في الشوارع بل في الوعي، لا تهتف في الميادين بل في النصوص، تُعيد طرح السؤال الذي لم تستطع الأنظمة الشمولية تحمّل سماعه: “من يملك الحقّ في أن يُعرّف الإنسان؟”

وهكذا، من المطرقة إلى الوعي، يكتمل ما بدأناه من “البروليتاريا إلى الكومنتاريا”... من الصراع على العمل إلى الصراع على المعنى، من الثورة على الجوع إلى الثورة على الخداع، من المطرقة التي كانت تطرق الحديد، إلى الوعي الذي بدأ أخيراً في طرق الوعي ذاته.